خطوات صغيرة لحل معضلة كبيرة

د. زهرة أحمد حسين

يصادف شهري سبتمبر وأكتوبر عودة التلاميذ لمدارسهم. ولعل السؤال الذي يفرض نفسه طوال هذين الشهرين على ذهن الكبار هو مقدار ما يتذكره الصغار من معلومات درسوها في العام الدراسي المنصرم، وذلك بعد انقضاء عطلة الصيف الطويلة. إن القلق حول هذا الموضوع علامة تشير إلى خلل متفش في العملية التدريسية، ولكن الأهم من هذا، أنه علامة تدل على خلل في تصور أولياء الأمور لمفهوم ثقافة الطفل، فالاعتقاد السائد هو أن منهاج المدرسة هو كل ما يجب أن يقرأه وهو مجمل ثقافة الطفل، أما عدا ذلك فلا داعي له، ولا حاجة له.

ويبدو واضحا أن المناهج الدراسية في العالم العربي في حالة شيخوخة. وفي ظل عجز الميزانيات المرصودة للتعليم ولتطوير مؤسساته، فهذه الشيخوخة تبدو كحالة مزمنة لا فكاك منها. وهناك قناعة شعبية طاغية بأن العصر الذهبي للتعليم الحكومي قد ولى الأدبار خلف تلال من المشاكل العنيدة، وأنه لن يعود في المستقبل القريب. لكن ماذا عن حالة الترهل التي أصابت مفهومنا لثقافة الطفل. أليس باستطاعتنا إعادة الصبا والحيوية لمفهوم ثقافة الطفل، والتي بحكم طبيعتها ووظيفتها، يجب أن تكون غير مقيدة بمناهج المدرسة؟

هذه المقالة دعوة لتجاوز الشكوى الدائمة من فشل التعليم الحكومي في خلق شخصية مبدعة عند الطفل، وفشله في خلق شخصية قارئة شغوفة باكتشاف المعلومة الجديدة، لأن التلذذ بهذه المناحة، في حقيقته، تبرئة للذات من ثقل المسؤولية، ومداراة لوهن الإرادة الشخصية، وبحث غير سليم عن كبش فداء.

ولنكن صريحين مع أنفسنا كأولياء أمور، ففشل الصغار في الإقبال على القراءة والإطلاع والثقافة، انعكاس لفشل الكبار، وأعني الكبار الذين في المنزل. وأن كنا جادين فعلا في منع الأفلام التلفزيونية، والإعلانات التجارية، وأخبار المشاهير من النجوم من أن تكون منبع الثقافة لأطفالنا، ومرشدهم في الحياة، لنمسك بتلابيب هذه الوسائل الإعلامية ولنتخذ خطوات صغيرة أولية لكنها فعالة ومجدية داخل المنزل.

تبدأ هذه الخطوات الصغيرة الأولى عندما يكون عمر الطفل ثلاث سنوات. فقيام الكبير بالقراءة لطفل بهذا السن، بينما عيونه البريئة والفضولية تنظر إلى الصور الملونة والكبيرة لكتاب يحكي قصة بسيطة، يمتع الطفل كثيراً، ويحسسه بأن له مكانة خاصة في قلب من يقرأ له.

وهناك عوامل مساندة تؤدي إلى استمرارية متعة القراءة عند الطفل، وأهمها أن يفهم الطفل ما يقرأ له. من هنا، فإنه من الأهمية بمكان أن يبسط ما يقرأ له عن طريق الحديث معه حول معنى المفردات وطريقة نطقها. وفائدة هذه العملية أنها تثري مفردات الطفل، ومن ناحية أخرى تزيد متعة القراءة عندما يعاد قراءة الكتاب للطفل مرة ثانية وثالثة.

وهناك عامل مساند آخر لاستمرارية متعة القراءة، فعنصر التشويق والترقب ومتابعة حكاية أو مغامرة لشخصية ما (سواء كانت بشرية، أو غير ذلك) تجر وراءها حكاية ومغامرة أخرى توثق علاقة الطفل بالكتاب.

واستخدام الكتاب كأداة لتخفيف التوتر في مواقف حياتية غير ممتعة، كانتظار الطفل في زيارة له لعيادة طبية، يولد المحبة والتقدير للكتاب. فما أجمل أن ينسى الصغير قلقه من طبيب الأسنان بالاستغراق في متابعة مغامرة لشخصية طريفة تقرأ له.

من هنا عند اختيار كتاب للطفل من هذه الفئة العمرية، لا يجب البحث فقط عن ما هو إرشادي، ويعج بالمواعظ. فكتاب عن النظافة الشخصية من غسل اليدين قبل الأكل وضرورة تقليم الأظافر لا يستحوذ على ذهن الطفل. أما حكاية عن شخصية ما، واقعية أم خيالية، تثير خيال الطفل وتوسع مداركه. ولإثارة خيال الطفل وشغفه بالكتاب فليسأل الكبير الطفل عما ستفعله هذه الشخصية إذا وجدت نفسها في موقف حياتي يدركه الطفل ويفهمه. فالسؤال حول «هل ياترى» و«وماذا لو» تفتح أفاقا من الخيال والمتعة عند الطفل.

ومن الأهمية بمكان أن يرى الطفل أفراد العائلة الكبار يستمتعون بالقراءة في استرخاء وصفاء بال، فربما يشاهد بعض الأطفال أمهاتهم أو آباءهم وهم يقرأون أوراقا تتعلق بعملهم المكتبي، أو أنهم يطالعون الأخبار السياسية وجباهم مقطبة، لكن الصورة الملهمة

للطفل هي أن يراهم يقرؤون وهم في حالة استرخاء لطيفة.

أما ما يرسخ القيمة الحياتية للكتاب فهو إشراك الطفل في عملية شرائه وتفحصه، فعند اصطحاب الطفل إلى السوق لشراء المواد الغذائية والملابس، على الكبار أن يعرجوا على مكتبة لشراء مجلة أو كتاب. فما يعنيه هذا الفعل في وجدان الطفل أن الكتب هامة وتستحق الشراء مثلما تستحقه الملابس والطعام.

هذه بعض الخطوات الصغيرة الأولية نحو حل معضلة فقر ثقافة الطفل وعزوفه عن الكتاب وستتابع الهيئة العالمية لكتب الأطفال/ فرع الكويت خطوات أخرى لفئات عمرية مختلفة في مقالات قادمة.